اللغة العربية انتقلت من بلاد الشام إلى ما يسمونه شبه الجزيرة العربية[1]

أكثر المؤلفات التاريخيّة التي تتحدث عن تاريخ الشعوب العربية القديمة التي سكنت بلاد الشام والعراق، قبل الميلاد، أكثر هذه المؤلفات تنقل أن هذه الشعوب هاجرت من البلاد التي يسمونها (شبه الجزيرة) إلى العراق والشام. . وأول غراب نعق بذلك هم الأوربيون، وأكثرهم من اليهود، أو من الأوربيين التوراتيين الذين يقدسون النصّ التوراتي. والهدف الخفيّ والمعلن من ذلك: توكيد مقالة اليهود أو زعمهم بأن الجنس العربي في الشام والعراق جنسٌ غريب جاء من شبه الجزيرة. فالكنعانيون والآموريون والفينيقيون. . إلخ جاؤوا من شبه (جزيرة العرب)، والفلسطينيون جاؤوا من «كريت»، وعرب العصر الحديث جاؤوا عقب الفتوحات العربية الإسلامية. يريدون أن يجعلوا اليهود وحدهم هم الأصليون، وأن عودتهم في العصر الحديث عودة إلى أرض الأجداد. . بل أخرجوا «الكنعانيين» من «الجنس السامي»، وجعلوهم من الجنس الحامي. .

إن الذين قالوا بهجرة الكنعانيين من سواحل الخليج، أو من نجد إلى الشام، توهموا أن الحجاز ونجداً واليمن هي مهد العرب فقط، وأن الشام والعراق كانا خاليين من العرب. . وبَنَوْا نظريتهم أيضاً على القياس الفاسد؛ حيث أثبت التاريخ أن هجرات عربية كثيرة تمت إلى بلاد الشام والعراق في القرون الميلادية، وبعد الفتح الإسلامي. . فقاسوا القديم على المتأخر. . والذين يتحدثون عن الهجرة من (شبه الجزيرة) إلى الشام يذكرون دائماً سبباً واحداً للهجرة، وهو الجفاف والقحط، والبحث عن أسباب العيش. . وإذا افترضنا جدلاً وحدة السبب للهجرة، فإننا نقول:

---

(1) قلتُ: ما يسمونه شبه. . إلخ سبق أن قررنا أن بلاد العرب جزيرة تشمل بلاد الشام والعراق، ولكن كتب الجغرافية الحديثة تجعل بلاد العرب التاريخية مقصورة على دول الخليج، واليمن، وتخرج منها بلاد الشام والعراق؛ تقليداً للجغرافيين الأوربيين.

إنّ هذا السبب ـ وهو قلة الرزق في مكان وكثرته في مكان آخر ـ لا يدوم على حال واحد في جميع الحقب الزمنية المتطاولة.

فالبلاد الغنية قد تصبح فقيرة، وقد تصبح الفقيرة غنية، ونضرب لهم المثل بالمشاهَد، الذي نعيشه وعشناه في القرن العشرين والقرن الحادي والعشرين. عندما كثر الرزق في دول الخليج العربي، وهاجر إليها عشرات الألوف للعمل، ومنهم مَنْ أقام إقامة دائمة، أو حصل على «تابعية» البلد الذي هاجر إليه.. وصاروا جزءاً من المجتمع في تلك الديار. ودوام الحال من المُحال، ومن الثابت تاريخياً أن كثيراً من المواقع الخربة اليوم، وأصبحت صحراء قاحلة، شهدتْ حضارة وعمراناً في زمن من الأزمان. فالغيث، أو الماء الذي يكون سبباً في الحياة والرخاء، هو رزق من الله قد يحبسه مدة، وقد يرسله.

ويطيب لي ـ في هذا السياق ـ أن ألخص النتائج التي توصل إليها الباحث المدقق فراس السواح في كتابه «آرام دمشق، وإسرائيل، في التاريخ، والتاريخ التوراتي»[1]؛ حيث قال في الفصل الأول: تشير البينات الأثرية واللغوية اليوم (1995م) وأكثر من أي وقت مضى إلى أن المنقطة السورية الواقعة بين الفرات والبحر المتوسط كانت مسكونة بعناصر عربية (سامية)[2] منذ أواخر الألف الرابع قبل الميلاد. فأقدم المدن في هذه المنطقة، مثل أريحا، وبيت شان، وبيت يارح، ومجدو، وعكا، وصيدون، وأوغاريت، تحمل أسماءً عربية (سامية) لا لبس فيها، كما أن اللُّقى الأثرية، وبقايا الهياكل العظمية تشير إلى استمرارية عرقية وثقافية واضحة ترقى إلى الألف الرابع (ق.م) وتتجاوزه، ويمكن القول: إن التركيب السكاني في المنطقة السورية لم يتعرض لأي تغيير جذري منذ أواخر العصر

---

(1) قوله: «في التاريخ والتاريخ التوراتي» يعني أن الأحداث التي وردت في كتاب التوراة، ليست موجودة في التاريخ، فهي أساطير وخرافات ينقضها التاريخ الواقعي.

(2) يستعمل المؤلف كلمة «السامية» مجاراة لما يكتبه المؤرخون الأوربيون وكثير من العرب، فوضعت «الساميّة» بين قوسين للدلالة على أنها غير صحيحة، ووضعتُ العربية مكانها أو قبلها؛ لأنها هي الصحيحة. والله أعلم.

النحاسي (4500 ق . م ـ 3300 ق . م)، حيث نستطيع متابعة خط ثقافي متميز لحضارة متصلة لا تظهر فجوة أو انقطاعاً.

ويسأل المؤلف: ولكن مَنْ هم هؤلاء العرب (الساميون) القدماء؟، ومن أين جاؤوا؟.

ويجيب الكاتب فراس السواح:

لقد أحدثت الدراسات اللغوية المقارنة الحديثة تغييراً عميقاً في معرفتنا للأصول السكانية في هذه المنطقة، والتغيرات التي طرأت عليها إلى درجة أن معظم النظريات القديمة، التي تعود إلى سبعينات القرن العشرين، قد غدت بالية[1]، وبحاجة إلى إعادة نظر جذرية. فلمدة طويلة ـ ومنذ القرن السادس عشر، سادت وبشكل كامل تقريباً نظرية الهجرات العربية (السامية) من جزيرة العرب التي عُدّت المهد الأصلي للعنصر العربي (السامي). وهذه النظرية تحتوي ضمناً أن اللغة العربية (السامية) الأصلية، وهي التي تفرعت عنها لغات حضارات الهلال الخصيب (العراق والشام)، قد نشأت في جزيرة العرب، وأن اللغة العربية هي أقرب الأقرباء إلى تلك العربية (السامية) الأصلية، إلا أن أبرز المدافعين عن نظرية الهجرات، بدأ يتخلى عنها في ضوء المعارف الجديدة في علم اللغات المقارن. ويذكر المؤلف عالم (الساميات) موسكاتي في كتابه الصادر سنة 1957م، وكان يدافع عن نظرية الهجرة. . إلا أن موسكاتي في كتاب لاحق صدر عام 1969م حول قواعد اللغة العربية العتيقة

(1) علم التاريخ الذي يبحث في تاريخ الأمم التي عاشت قبل الميلاد، يشبه علم الطب والعلوم التطبيقية الأخرى. ما كان في زمن صحيحاً، قد يصبح باطلاً، اعتماداً على البحث العملي والاكتشافات. وعلم التاريخ القديم، يعتمد كثيراً على نتائج الحفريات الأثرية التي تقدم كلّ يوم جديداً يبطل نظرية سابقة. ونزيد على ما تقدم: أن نتائج علم الآثار كانت بداياتها بيد العلماء التوراتيين واللاهوتيين، وهؤلاء يفسرون حسب أهوائهم لإثبات صدقية التوراة، وكلّ مَنْ خرج عن مذهبهم عدوه كافراً «لا سامياً»، وحرموه من الجنة، وطردوه من وظيفته. وفي العقد الأخير بدأ بعض العلماء الأوربيين والأمريكان يتفلتون من القيد التوراتي، ويقولون كلمة الحقّ، ولو أدى ذلك إلى حرمانهم من الوظيفة والجنة معاً، فتسربت إلينا معلومات نقضت النظريات التي سادت ردحاً من الزمن، فكان ما يشبه الثورة والانقلاب في هذا الميدان.

(السامية) يظهر شكه في هذه الفرضية، وما يتبعها من نسبة اللغة العربية (الساميّة) الأصلية إلى الصحراء العربية، ومن كون اللغة العربية الأخيرة هي الأقرب إلى هذه العربية (الساميّة) من شقيقاتها في الهلال الخصيب، مثل الأكادية، والأوغاريتية.

وبدلاً من التركيز على ما يسمى باللغة العربية (الساميّة) الأصلية يقوم العلماءُ الآن بتلمس خيط يربط اللغات العربية (الساميّة) باللغة المصرية، وبقية لغات شمال أفريقيا.

وهم يرون أن الأقرب إلى الواقع، هو وجود لغة أفرو ـ عربية (ساميّة) تفرعتْ فيما بعد، إلى عربية (ساميّة) وأفريقية عند نقطة معينة من التاريخ. من هؤلاء العلماء الألماني Behrens، والروسي Diakonoff. ففيما بين الألف السادس والألف الخامس قبل الميلاد تعرض الشمال الأفريقي إلى موجة جفاف طويلة وحادة أدت إلى التشكل التدريجي للصحراء الأفريقية، وإلى هجرات نحو مصر وآسيا الغربية، وقد قادت هذه الهجرات إلى تكوين اللغة المصرية القديمة في وادي النيل، واللغات (البربريّة) فيما وراء الصحراء الليبية، واللغة العربية (الساميّة) الأم في سورية، وهي العربية (الساميّة) الغربية، ومنها انشقت العربية (الساميّة) الشرقية، التي طورها النازحون باتجاه وادي الرافدين.

لقد ازدهرت الحضارة الزراعية في سورية منذ الألف الثامن قبل الميلاد، وكانت الثورة الثقافية التي يدعوها الأثريون بثورة «النيوليتيك» [ثورة العصر الحجري الحديث] قد بلغت ذروتها إبّان المدة التي وصل خلالها النازحون من شمال أفريقيا[1]، من هنا فإن القادمين الجدد لم يكن لديهم ما يقدمونه للثقافة النيوليتية سوى لغتهم التي تفاعلت مع اللغة المحلية؛ لينتج من تفاعلهما اللغة العربية (الساميّة) الأصلية.

---

(1) هناك دراسات جادّة، أثبتت الصلة القوية بين لهجات شمال أفريقيا «البربرية» وبين اللغة العربية، فعدّوا اللغة البربرية من فصائل اللهجات العربية العتيقة التي تسمى «الساميّة». وأثبتت هذه الدراسات الصلة العرقية بين البربر، والعرب. وهناك روايات شفوية تقول: إن البربر من فلسطين. والله أعلم. [عن مجلة التراث العربي ـ دمشق العدد (68) 1997م. من مقال للأستاذ محمد المختار العرباوي بعنوان: «أسلاف البربر»].

قال فراس السواح: أما جزيرة العرب، فيبدو أن اللغة العربية (الساميّة) قد جاءَتها من فلسطين وسورية الجنوبية في أواخر عصر البرونز المبكر، وأوائل عصر البرونز الوسيط[1]؛ (أي: حوالي عام 2000 ق.م)، فخلال هذه المدة ساد المنطقة السورية جفاف حار طويل أدى إلى انهيار ثقافة البرونز المبكر، وإلى اقتلاع للسكان، وهجرات واسعة النطاق، وتحوُّل شرائح كبيرة من الزارعين المستقرين إلى الرعي المتنقل، من هذا المنظور تغدو الهجرة العربية (الساميّة) عكسية، وباتجاه الجزيرة العربية، لا منها[2]. بل إنَّ الدراسات الأثرية والجيولوجية تقول: إن الصحارى القفراء التي نراها اليوم، كانت في عهد من عهود التاريخ المجهولة مروجاً خضراء آهلة بالسكان؛ لأن غيوم الرياح الغربية

(1) يقسم علماء الآثار العصور التاريخية منذ فجر الحضارة في سومر إلى العصور التالية:
أ ـ عصر البرونز المبكر من 3000 ـ 2000 ق.م.
ب ـ عصر البرونز الوسيط (2000 ـ 1600 ق.م).
جـ ـ عصر البرونز الأخير (1600 ـ 1200 ق.م).
د ـ عصر الحديد الأول (1200 ـ 1000 ق.م).
هـ ـ عصر الحديد الثاني (1000 ـ 700 ق.م).

(2) كانت الأمطار في (نجد والحجاز واليمن) في العصر الجاهلي غزيرة غزارة لا تعرفها هذه الأصقاع الآن. ولغزارة الأمطار في الجاهلية علامات:
أولاها: ما يحفل به الشعر الجاهلي من وصف السيول الدافقه.
وثانيتها: كثرة الأودية ومسايل المياه التي تشاهد في نجد والحجاز واليمن، إلى يومنا هذا، غائرة غائضة. وقد عقد الهمداني فصلاً في أودية السراة، ومسايل المياه، في كتابه «صفة جزيرة العرب»؛ حيث يفصل القول فيها تفصيلاً، ويعد منها شيئاً كثيراً.
وثالثة هذه العلامات: ما يذهب إليه بعض العلماء في قولهم: «وكانت الرياح الغربية التي تروي غيومها مرتفعات سورية وفلسطين، تصلُ في الأزمنة الغابرة إلى قلب جزيرة العرب، قبل أن تفقد هذه الغيوم رطوبتها». والعلماء هؤلاء يشيرون إلى أن ذلك كان في عصور جيولوجية سحيقة في القدم، ولكن ما ذكرناه من أمر الشعر الجاهلي، دال على أن ذلك كان مألوفاً في العصر الجاهلي الأخير، ومما يؤيد ذلك أن «ديودوروس» الصقلي ـ في القرن الأول قبل الميلاد ـ يذكر أن بلاد العرب التي تقع في الشمال من «العربية السعيدة»، وتمتد حتى تجاور سورية، يتخللها كثير من الأنهار، ويهطل عليها مطر غزير في الصيف، فيكون لسكانها بذلك موسمان زراعيان في السنة الواحدة.

الشمالية كانت تصل إلى الحجاز ونجد قبل أن تفقد رطوبتها، فتنهال الأمطار على قممها العالية، وتجري في وديانها أنهاراً، فتروي أراضيها وتسقي مروجها، ولعلَّ في عمق الوديان التي نشاهدها اليوم ما يشير إلى شيء من حقيقة هذا الرأي.

ويعلل الجيولوجيون الجدب الذي طرأ فيقولون: إن عوامل الجفاف الطبيعي ما لبثت أن حالت بالتدريج ـ على مرّ الأحقاب ـ دون وصول الغيوم الرطبة، فحرمت البلاد من أنهار جارية..

وهذا الرأي ليس ببعيد، ذلك أننا نشاهد أن سَورة الجفاف في عهودنا الحاضرة، اشتدت وطأتها عن عهود سلفت، فاختفت واحات كثيرة كانت معروفة في العهد الجاهلي وصدر الإسلام[1].

ويشهد للقول بأن بلاد الحجاز واليمن جاءَتها سنوات خصب وفير: ما قصه الله علينا في قصة أهل سبأ؛ حيث قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَـٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ﴾ [سبأ/ 18].

قال المفسرون: يذكر الله تعالى ما كانوا فيه من النعمة والغبطة والعيش الهنيء الرغيد، والبلاد الرخيّة، والأماكن الآمنة، والقرى المتواصلة المتقاربة بعضها من بعض، مع كثرة أشجارها وزروعها وثمارها؛ بحيث إن مسافرهم لا يحتاج إلى حمل زاد ولا ماء، بل حيث نزل وجد ماءً وثمراً، ويقيل في قرية، ويبيت في أخرى

---

(1) ذكر عرام بن الأصبغ السلمي (ت 275هـ) في كتابه «أسماء جبال تهامة وسكانها» أسماء كثير من القرى الزراعية وأنواع فاكهتها وثمارها، وأشار إلى كثرة مائها. من ذلك قوله عن جبل رضوى وعزور: «في الجبلين جميعاً مياه أوشال ـ والوشل: ماء يخرج من شاهقة، لا يطورها أحد، ولا يعرف منفجرها ـ ويصب الجبلان في وادي غيقة، وغيقة تصب في البحر. ولها مسك، وهي مواضع تمسك الماء، واحدها مساك. ويذكر ينبع فيقول: قرية كبيرة غناء.. فيها عيون عذاب غزيرة الماء، ووواديها (يليل) يصب في غيقة. وفي (يليل) عين كبيرة تخرج من جوف رمل من أعذب ما يكون من العيون وأكثرها ماءً. ويذكر الصفراء فيقول: قرية كثيرة النخل والمزارع، وماؤها عيون كلها، وهي فوق ينبع مما يلي المدينة، وماؤها يجري إلى ينبع. وذكر قرية «السوارقية» وفواكهها فقال: قرية غناء كثيرة الأهل.. ولهم مزارع نخيل كثيرة وفواكه وموز، وتين ورمان وعنب وسفرجل وخوخ. وذكر كثرة المطر فقال: وغدير «خم» هذا، لا يفارقه ماء أبداً من ماء المطر. وذكر الآبار التي في بعض الجبال فقال عن مائها: إنه ماء سماء، لا تنقطع هذه المياه لكثرة ما يجتمع فيها.

بمقدار ما يحتاجون إليه في سيرهم، ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا﴾، و﴿ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا﴾ هي قرى الشام. فقد كانوا يسيرون من اليمن إلى الشام في قرى ظاهرة متواصلة ﴿قُرًى ظَـٰهِرَةً﴾؛ أي: بينة واضحة، يعرفها المسافرون يقيلون في واحدة، ويبيتون في أخرى، ولهذا قال الله: ﴿وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ﴾؛ أي: جعلناه بحسب ما يحتاج المسافرون إليه: ﴿سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ﴾؛ أي: الأمن حاصل في سيرهم ليلاً ونهاراً.

• ما الذي نريد أن نثبته في البحث السابق؟

1- جزيرة العرب تشمل دول الخليج العربي، واليمن، والعراق حتى حدود نهري دجلة والفرات، ودول بلاد الشام (سورية، والأردن، ولبنان، وفلسطين)، وبلاد مصر حتى حدود نهر النيل، وتحيط بها المياه من جميع جهاتها، وهناك جزء من الجمهورية التركية يدخل في جزيرة العرب.

2- ونؤكد أن بلاد الشام التي كان يحتلها الروم قبل الإسلام، هي من جزيرة العرب، وبلاد العراق التي كان يحتلها الفرس قبل الإسلام، هي من جزيرة العرب.

3- مع أن الوجود العربي القديم قبل الإسلام لم ينحصر في حدود الجزيرة العربية، فقد انطلق العربُ خارج الجزيرة، كما هو حال «الأمازيغ» في المغرب العربي، والفينيقيين في جزيرة كريت، وفي قرطاج بتونس.

4- اليهود، والفرس، والروم واليونان غرباء عن بلاد الشام بعامة، وفلسطين بخاصة، لا أقصد اليهود في العصر الحديث فقط، وإنما أُريد «اليهود» قبل ميلاد المسيح أيضاً.

5- اللغة التي سادت في العراق والشام، وما بادت، هي اللغة العربية ذات اللهجات. ويمكن احتساب اللهجات العتيقة «الأكدية، والبابلية، والآشورية، والكنعانية» بمنزلة العتبات الأولى في السلم اللغوي لوطننا العربي، ولم تكن تشكل هذه اللهجات لغات قائمة بذاتها، وهي لا تشير إلى عرق أو جنس، بل تعود بنسبتها إلى مواقع أو مدن. فالأكدية: نسبة إلى «أكد» عاصمة الإمبراطورية الأكدية.

والبابلية: نسبة إلى بابل. والكنعانية نسبة إلى أرض اسمها كنعان، وليست منسوبة إلى قوم جدهم كنعان.. إلخ.

قال الدكتور جواد علي: فإنني لن أفكر في موطن أينعت فيه اللغة العربية في تلك الأيام سوى بلاد الشام والعراق.

6 ـ عدم حصر مجال نشوء وتطور اللهجات العربية القديمة فيما يسمى: «شبه الجزيرة العربية»، بل التوسع من حدوده ليشمل عالم «الهلال الخصيب» ووادي النيل؛ حيث لعبت اللهجة الآرامية دورها الأكبر في صيانة تراثنا اللغوي القديم قبل البعثة النبوية، تلك الآرامية التي احتلت العتبات الوسطى في السلم اللغوي لوطننا العربي خلال اثني عشر قرناً: من القرن السادس قبل الميلاد، وحتى صدر الإسلام، قبل أن تحل العربية الفصحى محلها[1]، بعد أن شغلت آنذاك أعلى عتبات ذلك السلّم اللغوي.

7 ـ ليس من اللغات أو اللهجات القديمة في بلاد الشام، أو في جزيرة العرب، لغة «عبرية». واللغات التي قيل: إنها «ساميّة» ليس من بينها لغة «عبرية».. فمصطلح «السامية» مخترع؛ للترويج للغة «عبرية» قديمة. مع العلم أنه لا توجد لغة عبرية قديمة، وكتاب يهود يقول: «شفة كنعان»، أو «لسان يهودي» نسبة إلى سبط يهوذا المزعوم، الذي اختلق في القرن الثالث قبل الميلاد، زمن كتابة التوراة، ونشوء اسم اليهود.

واللغة التوراتية خليط كنعاني وآرامي، كما هو معروف علمياً، ولم تظهر تسمية «لغة عبرية» إلا بعد السيد المسيح، فمن ظل على يهوديته، نطق بالعبرية، ومَنْ تنصّر، تكلم بالآرامية/ السريانية، وكتب إنجيل «متى» بالآرامية/ السريانية، وكتبت الأناجيل الثلاثة الأخرى باليونانية.

---

(1) العربية الفصحى: هي التي نزل بها القرآن، وتكونت قبل الإسلام بحوالي خمسة قرون، وتسبقها: اللغة العربية القديمة، وهي الآرامية الأولى، ثم لهجاتها المختلفة، مع لهجات اليمن (800ق.م). وتسبقها العربية العتيقة: وهي الكنعانية وأخواتها.

8 ـ التشابه الجليّ الواضح بين اللغة العربية، كما أدركناها في الأدب الجاهلي وفي الخطاب القرآني، وبين ما وجدناه في مختلف وثائق الحضارة اليمنية والنقوش القديمة (الثمودية، واللحيانية، والصفائية)؛ أي: بين ما وُجد فيما أطلقوا عليه (شبه جزيرة العرب) قبل الإسلام، وبين لغات أو لهجات بلاد الرافدين والشام، ووادي النيل، وشمال أفريقية، وهذا يدلُّ على وحدة الثقافة التي تعطي مجموعة من الناس اسم «الأمة»، وفيها دليل على وحدة بلاد الرافدين، وبلاد الشام ووادي النيل، مع بقية أجزاء بلاد العرب التي أطلقوا عليها (شبه جزيرة)؛ ليكون عندنا وحدة جغرافية وثقافية اسمها: «جزيرة العرب».

obeikandl.com